خلال الصراع القائم بين قبيلتي صنهاجه وزناته حيث تمكنت صنهاجه ممثلة بالإمارة الزيرية من السيطرة على النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي منه والذي يمتد من نهر الملوية إلى طنجه فقد سيطرت عليه زناته حليفة الأمويين وبذلك حصل التوازن بين القوى المتنافسة علما أن الفاطميين قدموا بعض المساعدات لعدد من الثوار والمتمردين ومنهم عمرين حفصون وأولاده كذلك أرسلوا العديد من عيونهم إليها لكشف عوراتهم والتجسس على أحوالها أمثال أبي اليسر الرياضي، ابن هارون البغدادي، وابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض، والذين كانوا يفدون إليها متسترين بأغراض مختلفة منها التجارة أو طلب العلم والمعرفة، وقد قام هؤلاء والجواسيس بدور كبير في الدعاية للفاطميين هناك، كما أمدوهم بمعلومات هامة عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيها اللازمة لهم لوضع خططهم لغزوها، وبالمقابل قامت الخلافة الأموية والدولة العامرية بتحصين الثغور الأندلسية الجنوبية تحسباً لأي هجوم مفاجئ يشنه عليها الفاطميون كذلك اهتموا بالبحرية (الأسطول الأندلسي) ليقف على قدم المساواة مع الفاطميين الذين ورثوا بحرية قوية عن الأغالبة.

وبعد إنجاز هذه الإجراءات تطلع الخليفة الناصر ومن جاء بعده إلى العدوة (السواحل المغربية) لإحكام سيطرته على مضيق جبل طارق، مليلة، سبته وغيرها.

استمرت الهجمات المتبادلة بالأساطيل بين الطرفين فترة طويلة بين الأسطول الأندلسي والأسطول الفاطمي، وكانت النتيجة سجالا بينهما، إلى أن رأى الفاطميون العدول عن الاستيلاء على الأندلس والعمل على فتح مصر سنة (٣٦٢هـ).

٢- العلاقة مع الأدارسة:- كانت العلاقة متأرجحة لأن الإمارة الأدريسية تدور في فلك السياسة الفاطمية مرة والأندلسية مرة أخرى، وهي تنحاز في ولائها للأقوى فقد قطعوا الدعوة للأمويين وقاموا بثورة بقيادة الحسن بن كنون سنة (٣٦١هـ).

٣- العلاقة مع النورمانديين:- تعرضت السواحل الأندلسية لهجمات النورمانديين في عهد الخليفة الحكم المستنصر ومنها في قصر أبي دانس فتصدى أسطول أشبيلية وانتصر على المهاجمين ولكن النورمانديين عادوا هجومهم سنة (٣٦٠ هـ) إلا أنهم عجزوا عن اختراق تحصينات الأسطول الأندلسي.

٤- العلاقات مع الممالك الإسبانية:- وجهت الأندلس خلال هذه الفترة عدة حملات عسكرية ضد الممالك المسيحية في الشمال الإسباني لأنها استغلت الفوضى والاضطرابات في الأندلس وإنشغال

قرب الباب الامامي

حكامها بالقضاء على المتمردين في الداخل، فكانت تخرج الحملات العسكرية على شكل صوائف وشواتي لرد اعتداءات الممالك الإسبانية وفي فترات أخرى عقدت معاهدات سلام لكن الممالك الإسبانية كانت تلغي تلك الاتفاقيات كعادتها عند أول فرصة تسنح لها فمثلاً نقض شانجه الاتفاقية المبرمة مع الخليفة الناصر حين رفض تسليم الحصون والقلاع المتفق عليها مما دفع الأندلس على انتزاع حقها فآوت الملك المخلوع اردونيو الرابع والمنافس الأقوى على عرش مملكة ليون وواعدته باستعادة مُلكه مما أجبر شانجه على التراجع عن موقفه حيث سارع بإرسال سفارة إلى قرطبة لإعلام الخليفة الحكم المستنصر باستعداده لتنفيذ الاتفاقات المعقودة مع الأندلس، كذلك وصلت وفود وسفارات من مملكة جليقية، قشتالة، ليون وغيرها أما لعقد اتفاقية أو طلب المساعدة لحل النزاعات فيما بين هذه الممالك الإسبانية.

وهكذا أصبح تبادل السفارات من مميزات هذا العصر ليست مع الممالك الإسبانية فحسب بل مع العديد من الدول الأجنبية ومنها مع بيزنطة والإمبراطورية الرومانية وغيرها.

٥- العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين والدول الأوروبية:- مع بيزنطة: أزدادت العلاقات توطداً بين الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد استقبل الناصر سفارتين أرسلهما إليه الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع أولاهما في سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م) وثانيهما في سنة (٣٣٨هـ/٩٤٩م)، وقد حملوا معهم هدايا للخليفة الأموي، ورد الناصر بسفارة مماثلة أرسلها للإمبراطور بالمقابل برئاسة هشام بن هُذيل يحمل معه هدايا قيمة ليؤكد المودة.

العلاقات مع الأمبرطورية الرومانية:- كما وفد إلى الناصر سفارة من قبل الإمبراطور أوتو الكبير عاهل الإمبراطورية المقدسة، ويبدو أنها جاءت نتيجة للغارات التي كان يشنها غزاة البحر الأندلسيين على سواحل بلاده الجنوبية، وعلى الرغم من أن نشاط غزاة البحر هؤلاء كان من قبيل الجهاد الفردي الذي يمارسه المسلمون، مقابل أعمال القرصنة التي كان يمارسها المسيحيون، إلا أن الإمبراطور أوتو أعتبر أن الخليفة الناصر مسؤول عن أعمال هؤلاء الغزاة الأندلسيين، فأرسل له مع السفارة رسالة شديدة اللهجة، فرد الناصر عليه برسالة مماثلة سنة (٣٣٩هـ/٩٥٠م) واستمرت المراسلات والسفارات وقد أدت إلى تخفيف حدة التوتر بينهما، الأمر الذي يستدل من أن العلاقات بين الطرفين كان يشوبها التوتر على عكس العلاقات مع الدولة البيزنطية التي كانت ودية للغاية.

قرب

العلاقات مع إيطاليا:- تشير بعض المصادر إلى قيام علاقات ودية بين الخليفة الناصر مع ملك إيطاليا، أدت إلى إبرام اتفاقية تحالف بينهما ضد الفاطميين أعداء الطرفين، ذلك أن الملك كان يرغب في الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم ميناء جنوة، فتوجه بالمودة لعدوهم الأول في الغرب الخليفة عبد الرحمن الناصر بهدف التنسيق بينهما للضغط على الفاطميين، ويستدل من هذه السفارات التي وفدت إلى بلاط قرطبة على ما أحرزه الناصر من مكانة سامية في ميدان السياسة الدولية آنذاك. حيث بقي قطبا من أقطابها إلى أن توفي سنة (٣٥٠ هـ/٩٦١م)، نقل بها الأندلس نقلة كبيرة جعلتها من كبريات الدول آنذاك، مما يدل على عظمة هذا الخليفة ومدى احترام الملوك له، أن الملك الإسباني أردونيو الرابع ملك ليون حينما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر سأل عن قبر الناصر بقرطبة وذهب إليه وركع أمامه في خشوع مُظهراً عظيم احترامه لذكراه.

ثانياً:- السياسة الداخلية

تمكنت الخلافة الأموية من القضاء على جميع الثورات والتمردات في الداخل وبشتى الوسائل وكانت علاقتها مع مصادر القوى الاجتماعية القبلية والدينية جيدة مع بعض الاستثناءات إلا أن مجيء الحاجب المنصور الذي قام بعدة أعمال منها الحجر على الخليفة الأموي هشام المؤيد وأن ينفرد بالسلطة واستحوذ على جميع الأمور وأصبح هو الحاكم الفعلي للأندلس بعد أن تمكن بشتى الوسائل من القضاء على منافسيه واتبع سياسة كسب ود الفقهاء ورضاهم كتعويض عن اغتصاب للسلطة وربما كان الحاكم الوحيد الذي بنى علاقة متكافئة بينه وبين الفقهاء، فلم يحاول تحجيم نفوذهم رغم سلطته المطلقة من جهة، ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى، وعمل على تغيير بنية الجيش ليكفل له تحقيق نتائج إيجابية على المستويين الداخلي والخارجي، وكان الجيش في عهده كما هو الحال في عصر الخلافة الأموية يتكون من صنفين رئيسيين هما: المشاة وهي القوات الضاربة في الجيش والفرسان الذين يعدون من الصنوف الفاعلة في كل موقعة من المواقع.

ومن السياسة الداخلية التمزق السياسي وظهور الأحزاب عند وصول هشام المؤيد ابن الخليفة الحكم المستنصر سنة (٣٦٦هـ/٩٧٦م) ولم يلبث هذا الخلاف أن أدى إلى ظهور أحزاب ما بين مؤيد ومعارض لخلافة هشام المؤيد وآخر لا مبالي وهم:

١- حزب رجال الدولة من الوزراء وكبار الموظفين يرغبون أن يتولى الصبي هشام سُدة الحكم لأن لهم مصلحة في ذلك، فهم الذين سيكونون الحُكام الحقيقيين.

٢- حزب الجُند وما إليهم الذين كانوا لا يرون أن يكون رأس الدولة صبي قاصر ضعيف، وبالتالي كانوا يفضلون عليه رجلاً مكتمل الصفات والرجولة.

٣- حزب ثالث محايد يرى تولي المُصلح فقط.

٤- حزب كان سلبياً لا يهمه الأمر، هذا إلى جانب عامة الناس وفقرائهم الذين لا يرون إلا تولي من يُبدل عسرهم يُسرا.

وتمخض الموقف أخيراً بأن أصبح الأمر سباقاً بين حزبي السياسيين أي حزب الوزراء والعسكريين فقد رأى العسكريون من أمراء الصقالبة ورجالات الجيش تنحية هشام المؤيد وتولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، في حين تمسك حزب السياسيين الذين يدعمه الوزير محمد بن أبي عامر المعافري بوصية الخليفة الحكم المستنصر التي تنص على تولية هشام، وأخيراً انتهى هذا السباق بانتصار حزب السياسيين حيث بُويع الصبي هُشام بالخلافة.

الحركة الحضارية في الأندلس في ظل الأمويين[1]

من المعروف أن فتح العرب للأندلس لم يكن احتلالاً عسكرياً، بل كان في جوهره حدثاً حضارياً هاماً امتزجت فيه حضارة العرب الفاتحين بالتراث الحضاري المتوارث لسُكان البلاد الأصليين والذي كان قوامه الحضارة الرومانية المشربة بعناصر من الحضارة القوطية ليخرج من هذا المزيج حضارة زاهرة كانت أرقى حضارة عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، ولم يكن يضاهيها وقتئذ في تلك القارة إلا حضارة صقلية في ظل الحكم العربي الإسلامي. وما تجدر الإشارة إليه أن الفتح العربي للأندلس تم في عهد الوليد بن عبد الملك الذي بدأت فيه حركة الحضارة العربية الإسلامية تنمو وتترسخ دعائمها، وتُبشر بالازدهار الذي برز بشكل واضح بعد ذلك بقليل أي منذ مطلع العصر العباسي الذي لم يكن بعيداً عن عهد الوليد بن عبد الملك.

وتبعاً لذلك، فيمكن القول بأن جيوش الفتح حملت معها بذرة الحضارة العربية الإسلامية المشرقية المطبوعة بالطابع الشامي، الذي ساد في عصر الولاة، بوصف هؤلاء الولاة كانوا يتبعون دولة اتخذت من بلاد الشام مركزاً لها، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر الحضارة الأندلسية في هذا العهد بالحضارة الشامية في مختلف مظاهرها وهذا ما عُرف في المصطلح الأندلسي

---

[1] ممدوح حسين، المرجع السابق، ص٧٧-٧٩.

- صاحب السوق:- ويختص بمراقبة الأسواق والنظر في المشاكل التموينية، وهي التي أصبحت وظيفة المحتسب فيما بعد.
- صاحب الشرطة العليا:- ويختص بالنظر في قضايا علية القوم.
- صاحب الشرطة الدنيا:- ويختص بالنظر في قضايا عامة الناس.
- صاحب المدينة:- ويشرف على المرافق العامة في المدينة، فكان يقوم بمهام المجلس البلدي في عصرنا الحاضر.

وفي عهده أيضاً، أخذت المؤثرات الحضارية العراقية تتسرب إلى الأندلس، ففي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م قدم إليها المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب الذي دفع بالحركة الفنية فيها دفعة قوية إلى الأمام، ومع زرياب أنتقلت إلى الأندلس طريقة ترتيب مجالس الشراب والمائدة (الأتكيت)، وبعض أنواع الأطعمة المشرقية كالباذنجان مثلاً، فضلاً عن الأزياء وأدوات الزينة، ونبغ في عصره العديد من العلماء مثل عباس بن فرناس الذي كان متعدد الاهتمامات والمواهب، كما أجتذب بلاط نخبة من علماء المشرق مثل (الحراني) الطبيب وغيره ممن اسهموا في تنشيط الحركة العلمية، ويمكننا القول أن النهضة العلمية بخاصة والحركة الحضارية بعامة قد نشطت في عهد عبد الرحمن الأوسط واستمرت تشق طريقها بقوة وثبات بالرغم من حالة الفوضى والفساد التي أعقبت وفاته إلى أن بلغت أوج نشاطها في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر.

فقد أهتم الناصر بالحركة الحضارية وبخاصة منذ إعلان الخلافة، فجعل قرطبة حاضرة عامرة على أن يُضاهي بها بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وأبرز ما يُذكر في هذا المجال هو إنشاءه ضاحية الزهراء التي جعلها مقر إقامته وبنى فيها القصور العديدة لسكانه ولرجال دولته وجعلها مقر الخلافة وزودها بكل جديد وثمين طريف من الأثاث والتحف، وأحاطها بالحدائق الغناء الواسعة والبحيرات الاصطناعية التي جُلب لها المياه من جبال قرطبة في أنابيب الرصاص بترتيب هندسي عجيب، فضلاً عن تزويدها بأنواع مختلفة من الأسماك، واجتذبت الحدائق مختلف أنواع الطيور، حتى أصبحت ضاحية الزهراء تحفة فنية رائعة.

وأما ابنه الحكم المستنصر، فقد فاق شغفه واهتمامه بالعلم، اهتمامه بأي شيء آخر حتى لُقب بالعالم، وقد شغف بجمع الكتب من مختلف المراكز العلمية في المشرق حتى ضمت مكتبته ما يزيد عن أربعمائة ألف مجلد، واستقطب بلاطه نخبة من علماء العصر من المشرق والمغرب وبخاصة

مكتبة احمد

من أفريقيا الذين فروا من حكم الفاطميين مثل إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم وأمثاله، وإذا أضفنا إلى جهود الناصر والمستنصر في دفع الحركة الحضارية جهود المنصور بن أبي عامر في هذا المجال الذي احتضن هذه الحركة ورعاها كما بنى ضاحية الزاهرة الشبيهة بالزهراء، لأمكننا القول بأن هذه الحركة بلغت في عصر الخلافة مستوى رفيعاً، الأمر الذي أضاف مآثرة أخرى من مآثر بني أمية في الأندلس، ولعل خير دليل على ذلك هو أن قرطبة بلغت في هذا العهد الغاية، فيُذكر العديد من المؤرخين أنه كان فيها (٢١٣٠٧٧) داراً لعامة الناس، و(٦٣٠٠) داراً للأكابر والوزراء والكتاب وكبار الموظفين ولرجالات الجيش، وكان فيها (٨٠٢٢٢) حانوتاً، و(٩١١) حماماً عاماً و(٣٨٧٧) مسجداً، وقيل (١٨٣٦) مسجداً، ويلحق بها (٢١) ضاحية، وفيها (٧٠) مكتبة عامة، وكان فيها أميال عديدة من الطرق المرصوفة، وتُضاء شوارعها ليلاً بالمصابيح، في حين لم تتمتع لندن وباريس بمثل هذا حتى بعد سبعة قرون من ذلك الوقت[1].

كما أهتم الأمويون بتنشيط الحياة الاقتصادية في دولتهم لتوفير الرخاء للشعب، ففي مجال الزراعة استصلحوا مساحات واسعة من الأراضي التي أصبحت أراضي زراعية، ووضعوا أنظمة مبتكرة للري، وأدخلوا أساليب وطرق الزراعة المتطورة التي كانت شائعة وقتئذ في المشرق، واستجلبوا العديد من أنواع الأشجار المثمرة والنباتات، فبالإضافة إلى التين والرمان، أدخلوا زراعة أشجار الحمضيات على اختلاف أنواعها والقطن والأرز وقصب السكر والزعفران وغيرها من نباتات وأشجار المشرق، وفي مجال الصناعة نشطت في قرطبة صناعة الجلود حتى نال الجلد القرطبي شهرة عالية، ثم صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها من صوفية وحريرية وقطنية وكتانية، واشتهرت المرية بصناعة الزجاج والنحاس،وشاطبة بصناعة الورق التي دخلت إلى الأندلس في هذا العصر، وبلنسية بصناعة الخزف، وطليطلة بصناعة الأسلحة وبخاصة السيوف التي نالت شهرة عالية كالسيوف الدمشقية، ومالقة بصناعة حنظ السمك، وانتقلت صناعة تكفيت النحاس والصلب وغيره بالذهب والفضة وزخرفتها بالنقوش والتوريقات النباتية من دمشق إلى الأندلس واشتهرت بها العديد من المدن الأندلسية فضلاً عن صناعة الحفر على الخشب والعاج والزجاج الملون والتحف والتي منها انتقلت إلى بعض المدن الأوروبية.

ونشطت التجارة الداخلية والخارجية في هذا العهد، وبرزت اشبيلية في هذا المجال التي كانت تستورد الأقمشة من مصر وباقي أقطار المشرق، والرقيق الأسود والذهب من أفريقيا وغيرهما

---

(١) ممدوح حسين، المرجع السابق ص٧١.

من منتجات تلك القارة، والرقيق الأبيض من أوروبا، وتُصدر القطن والزيت والزيتون، ومثلها مالقة وجيان اللتين كانت صادراتهما تشتمل على الزعفران والتين والسكر والرخام، وكانت حاصلات الأندلس تسلك سبيلها إلى الإسكندرية والقسطنطينية ومنها توزع إلى مختلف الأقطار، حتى وصلت إلى الهند وأواسطها، فضلاً عن نشاط حركة التجارة الخارجية مع كل من دمشق وبغداد ومكة[1].

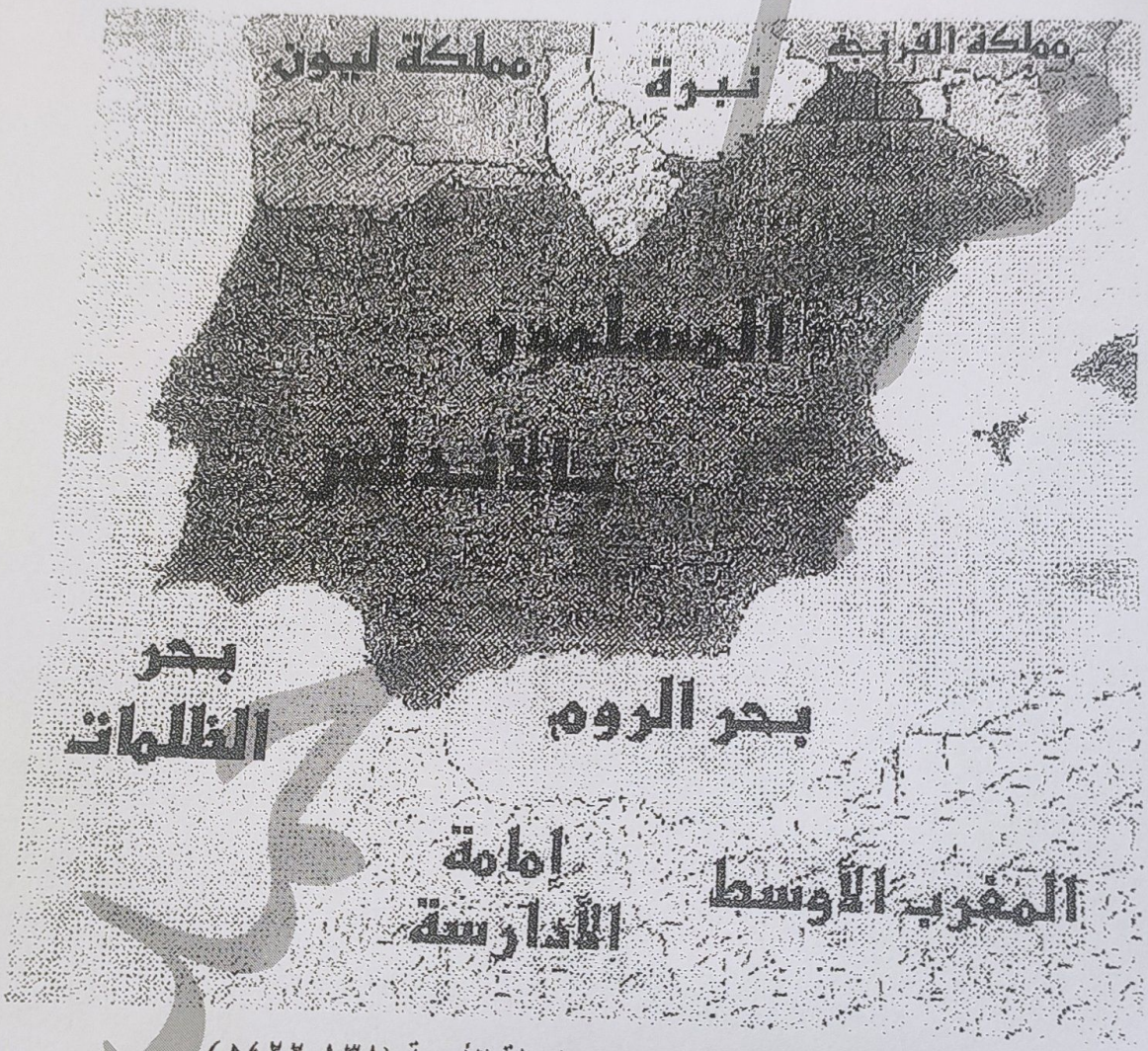

خريطة الأندلس في عصر الدولة الأموية (١٣٨-٤٢٢هـ)

(١) ربيعة الدباشي، السياسة الخارجية للأندلس في عصر الخلافة الأموية واثرها على الحياة الاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السابع من ابريل، الزاوية – ليبيا ٢٠٠٤، ص١٥٣-٢٢٦.